

مفهوم السبك عند القدماء والمحدثين من خلال لسانيات النص

The concept of alsabk among the ancients and moderns through text linguistics

كلية التربية/جامعة القاسم الخضراء
كلية التربية/جامعة القادسية

م.م دعاء عودة حريجة
م.م عقيل عبد مسلم هاشم

doaaalshami@uoqasim.edu.iq

المستخلص:

يعد مفهوم السبك من المفاهيم الجوهرية في لسانيات النص، إذ يشير إلى العلاقات النصية التي تسهم في ترابط النص واتساقه. ظهر هذا المفهوم بوضوح في تراث البلاغيين والنحويين العرب القدماء، مثل الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني، الذين ركزوا على الروابط المعنوية واللفظية التي تجعل النص متماسكاً. وقد رأى الجرجاني أن السبك يتحقق من خلال الروابط النحوية والمعنوية التي تجعل الجملة متصلة بما قبلها وما بعدها، وهو ما عبّر عنه بمفهوم النظم، إذ تكون الألفاظ في خدمة المعاني.

في المقابل نجد أن المحدثين، ولا سيما في إطار لسانيات النص، قد وسّعوا مفهوم السبك ليشمل الجوانب الدلالية، والنحوية، والتداولية. وقد كان للباحثين مثل هاليداي ورقية حسن أثر كبير في تطوير هذا المفهوم من خلال طرح مفهوم العلاقات السبكية (Cohesion) كأحد المعايير السبعة للنصية. ووفقاً لهذا المنظور، فإن السبك لا يقتصر على التراكيب النحوية فقط، بل يشمل أيضاً أدوات الإحالة (كالضمائر وأسماء الإشارة) وأدوات العطف والروابط الزمنية والمنطقية، مما يعزز التماسك النصي ويجعل القارئ قادراً على إدراك النص ككل متكامل.

الكلمات المفتاحية: (السبك، القدماء، المحدثين، لسانيات النص).

Abstract:

The concept of casting is one of the essential concepts in text linguistics, as it refers to the textual relationships that contribute to the coherence and consistency of the text. This concept appeared clearly in the heritage of ancient Arab rhetoricians and grammarians, such as Al-Jahiz and Abdul Qaher Al-Jurjani, who focused on the semantic and verbal links that make the text coherent. Al-Jurjani believed that casting is achieved through the grammatical and semantic links that make the sentence connected to what comes before and after it, which he expressed with the concept of system, where words serve meanings.

In contrast, we find that modernists, especially within the framework of text linguistics, have expanded the concept of casting to include semantic, grammatical, and pragmatic aspects. Researchers such as Halliday and Ruqayya Hassan had a great impact in developing this concept by introducing the concept of cohesion as one of the seven criteria of textuality. According to this perspective, casting is not limited to grammatical structures only, but also includes referential tools (such as pronouns and demonstratives), conjunctions, and temporal and logical links, which enhance textual coherence and enable the reader to perceive the text as an integrated whole.

Keywords: (casting, ancients, moderns, text linguistics)

المقدمة:

يدلُّ السبك بوصفه مفهوماً لسانياً على تتابع الكلام واتساقه، ويتحدد مفهومه بتتابع الكلمات في الجملة وفقاً لنظام اللغة، بما يدل على أن السبك هو تجاور الوحدات اللسانية، وفق إطار النظم على مستوى الجملة بشكل منسق ومحكم، وهو المعنى نفسه الذي تكلم عنه اللغويان الغربيان، ستيفن أولمان، وجون فيرث. فالسبك يسهم في التنظيم الدلالي بين الكلمات في السياق، إذ لا يمكن أن تستغني الكلمة بذاتها في السياق، فهي بحاجة إلى التلاؤم مع مجاوراتها ومصاحباتها؛ لإنتاج دلالة تنجم عن اقتراحهما، وهو أمر ليس مقصوراً على الجملة، وإنما يشمل علاقة الجمل بعضها ببعض، ومن ثم تنساق العلاقة نفسها على النص كاملاً، فلا يجوز أن يحدث تنافر بين الجمل المكونة للنص، إذ ينبغي أن تسبك وفق علاقات لسانية ونحوية؛ ليتصف بالإحكام من جهة الأسلوب. وهذا الأمر لم يكن بعيداً عن أذهان النحويين والبلاغيين القدماء، لاسيما في حديثهم عن المفاهيم اللغوية والنحوية التراثية، وفي مقدمتها الاقتران والمصاحبة، والنظم والتضام، ومن ثم فلا تعدّ نظرية السبك جديدة في الثقافات الغربية، وإنما لها جذور ضاربة في أصول التراث العربي، لاسيما في كتاب إعجاز القرآن لعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ). ويربط ما صدر عن المباحث اللسانية الغربية الحديثة، بظواهر الرصف عند اللغويين والبلاغيين والنحويين العرب القدماء، تتمُّ إمطة اللثام عن الجهود اللغوية التراثية التي يمكن أن تعدّ نظرية السبك الحديثة امتداداً لها. وقد تضمن البحث مقدمة ومبحثين، فجاء المبحث الأول بعنوان: أثر السبك والحبك في الترابط النصي، في حين تناول المبحث الثاني: معايير الترابط النصي، واختتمت البحث بخاتمة ألحقت بعدها قائمة بأسماء المصادر والمراجع، ثم تلتها قائمة بمواشم البحث.

1- مشكلة الدراسة:

تتمثل مشكلة البحث ببيان أثر السبك والحبك في التماسك النصي، من خلال عرض آراء النحويين والبلاغيين العرب القدماء، وعلماء اللسانيات، ومناقشتها؛ لإثبات العلاقة بين ما تحدث عنه القدماء في مسألة التراصف والسبك، والحبك والتضام والتماسك، وما جاء به اللسانيين المحدثين في هذا المجال، بغية تأصيل هذا المبحث عند النحويين واللغويين والبلاغيين العرب في هذا المجال.

2-أهداف الدراسة:

تتلخص أهداف هذا البحث بالآتي:

- تعريف السبك وبيان علاقته بالحبك والاتساق النصي.
- الوقوف على مظاهر السبك في النصوص.
- معرفة معايير الترابط النصي.
- كيفية تحقيق المقبولية للنص القائم على السبك.

3- منهج الدراسة:

تقوم هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، مستفيدة من إجراءاته عند علماء لغة النص واللسانيين عامة، كعرض مظاهر السبك من خلال الأمثلة، ومن ثم تحليلها، واستخلاص سماتها وخصائصها.

4- الدراسات السابقة:

ثمة دراسات تناولت جوانب من هذا البحث، ولكن بمنطلقات مختلفة ومعالجات نقدية متنوعة، كما أن الأهداف مختلفة. ومن هذه الدراسات:

- الترابط النصي في الخطاب السياسي... لسالم المنظري، وفيها تناول الباحث تحليل الأنساق السياسية في معاهدة صلح الحديبية، من خلال البنية النصية للمعاهدة، متطرقاً في كلامه عن حسن الرصف وجودة السبك.
- أثر عناصر الاتساق في تماسك النص، في سورة يوسف، للباحث محمود سليمان حسين، وهي رسالة ماجستير، قدمت للجامعة مؤتمراً في الأردن عام 2008، وقد تناول فيها الباحث، مظاهر الاتساق النصي في سورة يوسف من وجهة نظر علماء علم النص.
- الاتساق والانسجام في قصيدة بطاقة هوية، لمحمود درويش، للباحثة هناء دادة موسى، جامعة محمد مبراح ورقلة، الجزائر 2014. والدراسة تطبيقية تناولت فيه الباحثة العلاقة بين ظواهر الاتساق كالانسجام والحبك والسبك.
- الترابط النصي في رواية النداء الخالد لنجيب الكيلاني، لعيدة مسيل العمري، رسالة ماجستير جامعة الملك سعود، 2008، تناولت في هذه الدراسة وسائل السبك النحوي في الرواية، مستفيدة من إجراءات علم اللغة النصي.
- وتختلف هذه الدراسة عن الدراسات السابقة بوصفها تجرّي مقابلة بين آراء اللغويين والبلاغيين العرب فيما يتعلق بالسبك، وآراء علماء لغة النص، لتأصيل ظاهرة السبك في التراث العربي.

المبحث الأول

السبك والحبك في المباحث العربية القديمة وفي اللسانيات الحديثة

- مفهوم السبك والحبك:

السبك والحبك لصيقتان بعلم لغة النص، وهما من نتاج اللسانيات النصية المعاصرة، ويلتقيان بعلم البلاغة العربية في جهات كثيرة، لاسيما فيما أشار له بلاغيو العربية حول شروط النص الجيد الذي لا يجوز القبول إلا إذا كان قائماً على السبك والحبك.

1- السبك لغة:

يدل السبك على تعلق كلمات النص بعضها ببعض من بدايته وحتى نهايته، ويقصد به المكونات التي تجعل النص كلاً واحداً قائماً على التماسك¹.

¹ - ينظر: حبك النص، محمد العبد، مجلة فصول، العدد: 59، العام: 2002، ص: 54.

مفهوم السبك عند القدماء والمحدثين من خلال لسانيات النص م.م دعاء عودة حريجة م.م عقيل عبد مسلم هاشم

والسبك لغة مصدر سبكت الفضة، وغيرها، قال ابن منظور: "سبك الذهب والفضة ونحوه من الذائب يسبكه ويسبكه سبكا: ذوبه وأفرغه في قالب، والسبيكة القطعة المذوبة، وقد انسبك، والسبك تسيبك السبيكة من الذهب والفضة، يذاب ويفرغ في مسكبة من حديد، كأنها شق قصبه، والجمع السبائك، وفي حديث ابن عمر: لو شئت ملأت الرحاب صلائق وسبائك"²، والسبيكة: المكان الذي لا يألو أحد يرقاه³.
وزاد الزمخشري قائلاً: "سبك الفضة: خلصها من الخبث"⁴، ومن المجاز يقال: هذا كلام لا يثبت على السبك، وهو سبك للكلام، وفلان سبكته التجارب، وسبق الدقيق: أخذ خالصه، ورأيت خوانه السبائك، أي: الخبز الأبيض، وصعد أعرابي جبلاً صعباً فقال: أي سبيكة، لإملاسه⁵.

2- السبك اصطلاحاً:

يقصد بالسبك من الجهة الاصطلاحية تجويد الكلام وتحسينه، وبيان بلاغته، وقد استعمل اللغويون العرب القدماء السبك للتعبير عن العلاقات الدلالية للنصوص، في إطار انتظام أجزاء النص، ومصطلح السبك مترجم عن اللغة الإنجليزية بـ (cohesion)، فترجم إلى العربية بلفظ (السبك) بعده قريباً من المفهوم الغربي المترجم من جهة، ومستعملاً في التراث النقدي واللغوي والبلاغي العربي القديم بالدلالة نفسها أو ما يقارنها من جهة أخرى⁶ وقد عرفه د. تمام حسان بقوله: "هو إحكام علاقات الأجزاء، ووسيلة ذلك إحسان استعمال المناسبة المعجمية من جهة، وقرينة الربط النحوي من جهة أخرى، واستصحاب الرتب النحوية، حين تدعو دواعي الاختيار الأسلوبية، ورعاية الاختصاص والافتقار في ترتيب الجمل"⁷، وهذا التعريف منقول عن الدراسات الغربية، ولاسيما ما تحدث عنه هاليداي فيما يتصل بدرجات السبك التي تتعلق بعدد الوسائل المستخدمة، إذ كلما زاد عدد الوسائل السابقة في نص ما، ارتفعت درجة السبك فيه، ومن ثم ارتفاع منسوب النصية فيه، غير أن هذه الدرجة تتفاوت داخل النص الواحد، فقد تزيد في جزء منه، وتنقص في جزء آخر، كما تعلق داخل بعض تراكيب النص، وتبسط في بعضها الآخر⁸، والمقصود من هذا الكلام أن مفهوم السبك وسيلة من وسائل الإحكام النصي، فكثرة هذه الوسائل في نص ما هو دليل جودة وقوة وإحكام، وتراجع هذه الوسائل في نص آخر يعني ضعفه وتراجع، والوسائل المستخدمة لا تعمل في كل أجزاء النص الواحد، فقد تنشط في جزء منه، وتخمد في نص آخر، وهذا هو سبب التباين في النصوص،

2 - لسان العرب، ابن منظور: 438/10.

3 - ينظر: المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد: 193/6.

4 - أساس البلاغة، الزمخشري: 435/1.

5 - المصدر نفسه: 435/1.

6 - ينظر: نحو أجزائية النص الشعري، سعد مصلوح، مجلة فصول، العدد: 2، العام 1999، ص: 154.

7 - قراءة جديدة لتراثنا النقدي، تمام حسان، ص: 789.

8 - ينظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات، جميل عبد المجيد، ص: 123.

وكان أبو تمام الشاعر العباسي المشهور يشكو من التباين بين شعره الذي كان يترجح بين الجودة والرداءة، فسئل البحري عن شعره وشعر أستاذه أبي تمام، فقال قولته المشهورة: "جيده خير من جيدي، وردئي خير من ورديه"⁹.

3- الحبك لغة:

الحبك لغة هو الشد والإحكام، قال ابن منظور: "الحبك: الشد"¹⁰، ووصفت السماء بأنها ذات حبك¹¹، والحبك يشكل ثنائية لسانية مع السبك فيقال: السبك والحبك للدلالة على إحكام البنية النصية تماسكها ومن جهة ومن جهة ثانية على ثرائها الدلالي.

4- الحبك اصطلاحاً:

يعرف الحبك بأنه فعالية دلالية تؤدي إلى ترابط معنوي بين التصورات والمعارف، من حيث هي منظومة مركبة من المفاهيم، وما ينظمها من علاقات، أو أنها شبكة دلالية مختزنة، إذ لا تتصل بالشكل، وإنما تتعلق بمتلقي النص الذي يدرك الحبك من خلال السبك. فهو الذي ينشئه ويوجده¹². وهذا يعني أن للحبك سمة اتصالية اجتماعية، يشترط فيه مناسبة الكلام لأحوال المتلقي، وإنشاء الخطاب بما يتلاءم مع أحواله النفسية، وأوضاعه الاجتماعية.

إذن الحبك هو خاصية تواصلية، أو حصيلة تواصل المتلقي مع النص، لذا يحرص المتكلم على تحسين المطالع ومقامات الاتصال، كما يراعي أحوال المخاطبين، وما يؤثر فيهم، وهذا المبدأ معروف في النقد العربي القديم، إذ كانت مراعاة أحوال المخاطبين من أبرز القواعد النقدية التي يحكم من خلالها على جودة النص. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل خصص النقاد لكل طبقة من الطبقات الاجتماعية ما ينبغي أن تخاطب به، فالملوك لا تخاطب بما تخاطب به العامة، وقد أشار الجاحظ إلى أن للكلام طبقات، وللمخاطبين طبقات، فوجب على المتكلمين في محاوراتهم ومخاطباتهم بلوغ الغاية في الخطاب، ليجعلوا كلامهم على أقدار المخاطبين¹³، كذلك جعلوا للخطاب الشعري مستلزمات خاصة بالمقام، فلا يحسن التغزل في بدايات قصائد الرثاء. يقول ابن رشيق: "وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسباً كما يصنعون ذلك في المدح والهجاء"¹⁴، وقال ابن الكلبي وكان علامة: لا أعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة:

أرث جديد الحبل من أم معبد بعافية وأخلفت كل موعد¹⁵.

ومصطلح الحبك كمصطلح السبك نتاج لساني، صدر عن الدراسات اللغوية الغربية الحديثة، ويعرف باللغة الإنجليزية بـ (coherence)، وقد عرض محمد العبد مسوغات وضع مقابل لفظي في اللغة العربية لهذا المصطلح، فتم اختيار كلمة (الحبك) للأسباب الآتية:

- أ- يؤلف السبك مع الحبك ثنائية متجانسة، فيتضح مفهوم الحبك بالنظر إلى نظائره.
ب- الجمع بين الحبك وقرينة السبك يسهم في اختصاص معناه، وهو ما لم يتحقق لكثير من المفاهيم.

⁹ - الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري، الأمدى: 11/1.

¹⁰ - لسان العرب، ابن منظور: 424/10.

¹¹ - المصدر نفسه: 425/10.

¹² - ينظر: حبك النص، ص: 55.

¹³ - ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ: 80/1.

¹⁴ - العمدة، ابن رشيق: 151/2.

¹⁵ - ينظر: المصدر نفسه: 151/2.

مفهوم السبك عند القدماء والمحدثين من خلال لسانيات النص م.م دعاء عودة حريجة م.م عقيل عبد مسلم هاشم

ت- للحبك دور أساسي في ربط الوحدات الجزئية في النص¹⁶.

يضاف إلى ذلك أن الحبك معروف لدى النقاد واللغويين العرب القدماء، فكان ابن قتيبة يشيد بفكرة القرآن، في قوله: "وتبين التكلف في الشعر أيضاً بأن ترى البيت فيه مقروناً بغير جاره، ومضموماً إلى غير لفقه، لذلك قال عمرو بن لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك، قال: وبم ذلك؟ فقال: لأني أقول البيت وأخاه، ولأنك تقول البيت وابن عمه"¹⁷، وفكرة القرآن التي أشار إليها ابن قتيبة لا تخص الشعر فحسب، بل تشمل جميع ضروب الكلام، إذ لا يستجاد كلام من مجاورة تنجم عنها علاقات دلالية، إذ يتحقق السبك والحبك من تلك المجاورة؛ ذلك لأن السبك هو ما يربط بين عناصر النص من حيث السطح، أما الحبك فيكمن في صميم النص، وبتضافر هذين المفهومين تتحدد كيفية تكيف العناصر التي يتألف بعضها مع بعض في إنتاج المعنى، وقد استعمل اللغويين العرب القدماء المفهومين تصريحاً وتلميحاً في وصفهم النصوص، وكانوا يذكرون صفة الاستمرارية، ويجسدها السبك، قال الجاحظ: "وأجود الشعر ما رأيت متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فيعلم بذلك أنه أفرغ إ فراغاً جيداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان"¹⁸، وتحوز كلمة الجاحظ هنا أهمية بالغة، لتمامها مع حقيقة مفهوم السبك الذي نظر من خلاله اللسانيون في الغرب إلى النصوص، ولم يكن الجاحظ فريداً في تصويره لأهمية سبك الكلام، فقد تبعه أسامة بن منقذ في ذلك، بوضع تعريفاً دقيقاً للسبك في قوله: "وأما السبك فهو أن تتعلق كلمات البيت بعضها ببعض من أوله إلى آخره، كما يقول زهير بن أبي سلمى:

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا اطعنوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا

ولهذا قال خير الكلام المحبوك المسبوك الذي يأخذ بعضه برقاب بعض"¹⁹، ويرمي ابن منقذ من نقده شعر زهير حين ذكر العبارة ((خير الكلام المحبوك المسبوك))، إلى التعبير الذي يستعمله اللسانيون في التعبير عن ثنائية السبك والحبك، فمثلها ابن منقذ بثنائية اللفظ والمعنى، فخص اللفظ بالسبك، وخص المعنى بالحبك، ثم أضاف تعبيراً نقدياً يشمل المنظومة الكلامية عامة في قوله ((يأخذ بعضه برقاب بعض))، وهو نظير التعبير اللساني لظاهرة السبك التي تقول:

((إحكام علاقات الأجزاء))²⁰، وقد استعمل ابن طباطبا العلوي هذه الثنائية بمعنى الجسد والروح، إذ سبك الكلام بمنزلة الجسد، والحبك بمنزلة الروح، يقول: "فواجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعة متقنة لطيفة مقبولة مستحسنة

16 - ينظر: حبك النص، محمد العبد، ص: 55

17 - الشعر والشعراء، ابن قتيبة: 90/1.

18 - البيان والتبيين، الجاحظ: 75/1.

19 - البديع في نقد الشعر، ابن منقذ، ص: 163.

20 - ينظر: قراءة جديدة لتراثنا النقدي، تمام حسان، ص: 789.

محكمة محبة السامع له، والناظر بعقله إليه، فيحسنه جسماً ويحققه روحاً²¹، ومن الأمثلة التي تحقق فيها السبك والحبك، كما أشار القزويني قول المتنبي:

فلا الجود يفني المال والجد مقبل ولا البخل يبقي المال والجد مدبر²²

ففي البيت اشترك التوازي التركيبي، مع التقابل الدلالي، مما حقق للبيت السبك والحبك²³، والتعاقد هو أحسن أنواع المقابلة عند ابن رشيق القيرواني، ويبدو ذلك في تعليقه على بيت للناطقة الديباني يقول فيه:

فتى تم فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسوء الأعدايا

فقال ابن رشيق: فقابل يسر ب يسوء والصديق بالأعادي وهذا جيد،²⁴ وكذلك علق على قول عمر بن معد يكرب:

ويبقى بعد حلم القوم حلمي ويفني قبل زاد القوم زادي

فقابل بين يبقى بعد، ويفنى قبل²⁵.

ومن النقاد الذين استعملوا ثنائية السبك والحبك ابن شرف القيرواني في كتابه "مسائل الانتقاد" حين وصف مرثية أبي ذؤيب الهذلي بأنها: "نقية السبك متينة الحبك"²⁶، والأمر نفسه نجده في كتاب "البدیع في وصف الربیع" لأبي الوليد الإشبيلي في الثناء على شعر لابن الأبار وصف فيه الربيع فقال:

((قطعة جيدة الحبك حسنة السبك))²⁷، ومن ذلك ما ذكره العماد الأصفهاني في كتابه "خريدة القصر وجريدة العصر"، حيث وصف شعر نشوان الحميري بأنه: ((قوي الحبك حسن السبك))²⁸، وكذلك ابن الأثير حين تحدث عن المفاضلة بين الألفاظ فقال: ((ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظين يدلان على معنى واحد، وكلاهما حسن الاستعمال، وهما على وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل المواضع التي تستعمل فيها هذه، بل يفرق بينهما في مواضع السبك، وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه، وجل نظره))، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾²⁹، وقوله تعالى: ﴿رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً﴾³⁰، فاستعمل الجوف في الأولى، والبطن في الثانية، ولم يستعمل الجوف موضع البطن، ولا البطن موضع الجوف، واللفظتان سواء في الدلالة، وهما ثلاثيتان في عدد واحد، ووزنهما واحد، فانظر إلى سبك الألفاظ كيف تفعل³¹.

21 - عيار الشعر، ابن طباطبا، ص: 203.

22 - ينظر: الإيضاح، القزويني، ص: 530.

23 - ينظر: البدیع بين البلاغة العربية واللسانيات، ص: 151.

24 - العمدة، ابن رشيق: 16/2

25 - المصدر نفسه: 17/2

26 - مسائل الانتقاد، ابن شرف القيرواني، ص: 3.

27 - البدیع في وصف الربيع، الإشبيلي، ص: 30.

28 - خريدة القصر، العماد الأصفهاني: 558/2.

29 - سورة الأحزاب: 4.

30 - آل عمران: 35.

31 - المثل السائر، ابن الأثير: 164/1.

مفهوم السبك عند القدماء والمحدثين من خلال لسانيات النص م.م دعاء عودة حريجة م.م عقيل عبد مسلم هاشم

ووقف ابن أبي الإصبع عند مبدأ الانسجام في الكلام معرّفًا إياه بقوله: ((هو أن يأتي الكلام متحدرًا كتحدر الماء المنسجم بسهولة سبك، وعضوية ألفاظ، وسلامة تأليف حتى يكون للجمل من المنثور، والبيت من الموزون، وقع في النفوس، وتأثير في القلوب ما ليس لغيره))³²، وفي كلام ابن أبي الإصبع فكرة في غاية الأهمية، إذ ربط بين الانسجام والسبك من جهة، وبين الرصف والأثر الفني والجمالي في نفس المتلقي، وهذه الفكرة نبه عليها علماء اللسانيات في الغرب، إذ أشاروا إلى الجانب التأثيري للحبك بوصفه شبكة دلالية مختزنة، إذ لا تتصل بالشكل، وإنما تتعلق بمتلقي النص الذي يدرك الحبك من خلال السبك، فهو الذي ينشئه ويوجده³³، وكلام ابن أبي الإصبع بهذا المعنى يعد تأصيلًا للمصطلح اللساني المعروف بالحبك، ولا سيما من حيث جانبه التأثيري في نفس المتلقي، ولم يقتصر الجهد الذي قدمه ابن أبي الإصبع على الأثر الذي يخلفه الحبك في النفس، بل تجاوزه إلى التعرض إلى مفهوم السبك، إذ عرض لهذا المفهوم في أثناء حديثه عن الاطراد، فعرّفه بقوله: ((هو أن تطرد للشاعر أسماء متتالية، يزيد الممدوح بها تعريفًا، لأنها لا تكون إلا أسماء آبائه، تأتي منسوقة صحيحة التسلسل غير منقطعة من غير ظهور كلفة على النظم، ولا تعسف في السبك، بحيث يشبه تحدرها باطراد الماء لسهولته وانسجامه))³⁴، وكذلك أفاض العسكري في الكلام على سبك الكلام وحسن رصفه فقال: ((ينبغي أن تجعل كلامك مشتبهًا أوله بآخره، مطابقًا هاديه بعاجزه، ولا تتخالف أطرافه، ولا تتنافر أطراره، وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها مقرونة بلفقها))³⁵، فضم عددًا من الشروط الواجب توافرها في الكلام حتى يكتسب معنى الحسن، كالمشابهة والمطابقة والقران والتلاؤم، ثم قدم تصورًا شاملًا لترتيب الكلام، فسماه صنعة واجبة، يمكن تجويدها من قبل المتكلم أو الكاتب عن طريق تخير الألفاظ بحسب ما يقتضيه تلاؤم السياق، وأن يكون الإطناب والإيجاز بحسب مقتضيات المقام، وأن ترشد أوائل الكلام إلى أواخره، كما ينبغي أن ينبئ الكلام عن مصادره، وهو ما يوفر له خاصية الحبك بين أجزائه، يقول محمد العبد: ((في كلام أبي هلال ما يفيد وعيه بتناسق حقول الدلالة بين أجزاء الكلام، كما يفيد وعيه بإحدى العلاقات الدلالية التي توفر للخطاب حبكة، وهي علاقة التفسير، تفسير المجل، ومازلنا نرى إشارته إلى اشتباه أو الكلام بآخره، ومطابقه هواديه لأعجازه، ما يجمعها بمبدأ انتظام المعاني، واتصال الكلام))³⁶، وما يلفت النظر في كلام أبي هلال هو حرصه إلى تمام الكلام، حيث تأتلف أجزاءه مع لفقها، ليبلغ الكلام أعلى مراتب التمام والكمال، وهو ما ينتهي عنده الحد في صنعة الكلام، وفي مواضع أخرى يجمع في نقده بعض أبيات للنمر بن تولب بين السبك والرصف، ليقول عنها: ((هذه الأبيات جيدة السبك، حسنة الرصف))³⁷، وكذلك في كتابه "الأوائل" حيث وصف الخط في

32 - تحرير التحرير، ابن أبي الإصبع: 429.

33 - المصدر نفسه، ص: 430

34 - المصدر نفسه، ص: 352.

35 - الصناعيتين، العسكري، ص: 41.

36 - حبك النص، محمد العبد، ص: 61.

37 - الصناعيتين، العسكري، ص: 41.

قوله: ((هذا وشي محبوبك، وهذا ذهب مسبوك))³⁸، وأما ابن طباطبا فقد انصرف إلى تأليف الكلام بما يؤدي إلى سبكه وحبكه فقال: ((وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه، فيلائم بينها لتنظم له معانيها، ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد بدأ وصفه وبين تمامه فضلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه، فلا يتبه على ذلك إلا من دق نظره ولطف فهمه))³⁹، ومؤدى كلام ابن طباطبا في تأليف الشعر وتنسيقه إنما يدخل في مجالات العلاقات الدلالية بين الكلمات والمفاهيم التي يتحقق من خلالها السبك، فانتظام المعاني، واتصال الكلام تفهم في ضوء مبدأ الاستمرارية المعنوية التي توفر للخطاب حبكة، وهو ما يمثل نواة أبنية الكلام الكبرى، إذ يؤدي الانتظام والاتصال إلى العلاقة بين أجزاء الكلام، أو يفضي إلى لون من المشاكلة، وهذا لا يلاحظه إلا من دق نظره ولطف فهمه، وفي ضوء مبدأ الانتظام المعنوي والاتصال الكلامي يمكن ملاحظة الخلل في حال عدم وقوع المشاكلة بين أجزاء القول، لأن مراعاة المشاكلة جزء من عملية السبك والحبك، وهذا بين معروف لدى نقاد الشعر القدماء، حيث أثبتت قضية المشاكلة على نحو واسع في قول امرئ القيس:

كأنسي لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل لخليلي كرى كرة بعد إجفال

فقال ابن طباطبا: ((هما بيتان حسنان، ولو وضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر كان أشكل، وأدخل في استواء النسج، فكأن يروي:

كأنسي لم أركب ولم أقل لخليلي كرى كرة بعد إجفال

ولم أسبأ الزق الروي للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال⁴⁰

فابن طباطبا لم يجد في بيتي امرئ القيس مشاكلة تفضي إلى جودة في السبك والحبك، مع إمكانية تحققها إذا أجرى عجز البيت الثاني مع صدر البيت الأول، وعجز البيت الأول مع صدر البيت الثاني، فيكون هنالك تشاكل بين الصدور والأعجاز في البيتين، والسبب الذي دفع ابن طباطبا إلى ذلك أن تعذر المشاكلة أفضى إلى عدم التلاؤم الدلالي، لهذا غير نظام البيتين ليجعل صدر الأول مع عجز الثاني، وصدر الثاني مع عجز الأول، فيستقيم برأيه الجانب الدلالي في البيت، لأن ركوب الخيل يشاكل مع قوله لخليلي كرى، وشرب الخمر من جهة اللذة يشاكل تبطن الكاعب الحسناء، غير أن ابن رشيق لم يستسغ تصرف النقاد في ترتيب البيتين فقال: ((إن قول امرئ القيس أصوب، ومعناه أعز وأغرب، لأن اللذة التي ذكرها إنما هي للصيد، ثم حكى عن شبابه وغشيانه النساء، فجمع في البيت معنيين، ولو نظمه على ما قال المعترض لنقص فائدة عظيمة، وفضيلة شريفة تدل على السلطان، وكذلك البيت الثاني، لو نظمه على ما قال لكان ذكر اللذة حشوا لا فائدة فيه، لأن الزق لا يسبأ إلا للذة، فإن جعل الفتوة كما جعلناها فيما تقد للصيد قلنا: في ذكر الزق الروي كفاية، ولكن امرأ القيس وصف نفسه بالفتوة والشجاعة، بعد أن وصفها بالتملك والرفاهة))،

وجهة اعتراض المعترضين على قول امرئ القيس، ومنهم ابن طباطبا، أن امرأ القيس قدم نصاً مسبوکاً غير محبوبك؛ ذلك لأنه مفتقر إلى المشاكلة بين صدر البيت وعجزه، أما المؤيدون فأروا أن بيتي امرئ القيس مسبوکين محبوبين على

38 - المصدر نفسه، ص: 42.

39 - عيار الشعر، ابن طباطبا، ص: 259.

40 - عيار الشعر ابن طباطبا، ص: 210.

مفهوم السبك عند القدماء والمحدثين من خلال لسانيات النص م.م دعاء عودة حريجة م.م عقيل عبد مسلم هاشم

نحو سليم، وهو رأي ابن رشيق الذي لاحظ فائدة في الدلالة على النحو الذي قاله امرؤ القيس، وتكرر هذه المسألة في شعر لأبي الطيب المتنبي في مدح سيف الدولة، وفيه بيتان يثيران ما أثاره بيتا امرئ القيس من خلاف بين النقاد، فقال المتنبي:

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثرعك باسم

ونقل ابن الأثير ما دار حول ترتيب البيت من خلاف بين مستقبليه شعر المتنبي، لا سيما المقصود بالمدح وهو سيف الدولة، **حيث** قيل: لو طبق المصراع الثاني للبيت الأول على مصراع البيت الثاني، **ولو** جعل المصراع الثاني للبيت الثاني مصراعاً للبيت الأول لكان أفضل. يقول سيف الدولة للمتنبي، على نحو ما أورد ابن الأثير: "قد انتقدتهما عليك كما انتقد على امرئ القيس بيتاه، فبيتاك لم يلتئم شرطهما، كما لم يلتئم شرط بيتي امرئ القيس، وكان ينبغي أن تقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثرعك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم

فقال المتنبي: "إن صح أن الذي استدرك على امرئ القيس، هذا أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك، لأن البزاز يعرف جملته، والحائك يعرف تفصيله، وإنما قرن امرؤ القيس النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السماحة بسبب الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء، وكذلك ذكر الموت لاشك في صدر البيت الأول اتبعته بذكر الردى في آخره، ليكون أحسن تلاؤماً، ولما كان وجه المنهزم الجريح عبوساً وعينه باكية قلت: ووجهك وضاح وثرعك باسم، لأجمع بين الأضداد"⁴¹. وملاحظة سيف الدولة على ترتيب بيتي المتنبي، وقعت في الموقع الذي وقعت فيه ملاحظة ابن طباطبا على بيتي امرئ القيس، وهي الافتقار إلى المشاكلة، فسيف الدولة رأى أن المشاكلة تتحقق بتغيير ترتيب أشطر البيتين، وهو الاقتراح نفسه الذي قدمه ابن طباطبا لترتيب أشطر بيتي امرئ القيس، ولئن دافع ابن رشيق عن بيتي امرئ القيس، إلا أن المتنبي هو من قام بالدفاع عن ترتيب بيتيه، إذ دل في كلامه على مواضع السبك والحبك فيهما من حيث تماسك البنية التركيبية واستقامة الحبك الذي يطول الدلالة المناسبة.

والأمر يتكرر في كتب الأدب العربي القديم عامة، إذ كان النقاد يحكمون السبك والحبك في إيجاد التلاؤم والتشاكل النصي في الشعر، إذ نظر ابن طباطبا إلى قول طرفة بن العبد:

ولست بجلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد

فقال: "فالمصراع الثاني غير مشاكل للأول، وكقول الأعشى:

وإن امرأ أسرى إليك ودونه فياف تنوفات وبيداء خيفق

لمخوفة أن تستجبي لصوته وأن تعلمي أن المعان موفق

فقال: فقوله: وإن تعلمي أن المعان موفق، غير مشاكل لما قبله⁴².

ومن ضروب السبك والحبك التي تردت في أقوال النقاد القدامى، ما ذكره الحسن بن وهب في حد البلاغة فقال: "وحدها عندنا القول المحيط بالمعنى المقصود مع اختيار الكلام، وحسن النظام، وفصاحة اللسان، وزدنا حسن النظام، لأنه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن الآتي على المعنى، ولا يحسن ترتيب ألفاظه، وتصير كل واحدة مع ما لا يشاكلها، فلا تقع ذلك موقعه"⁴³، ثم جاء بمثال دال على قوله من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "أين من سعى واجتهد وجمع وعدد، وزخرف ونجد، وبنى وشيد"⁴⁴، فقال ابن وهب: "فأتبع كل حرف بما هو من جنسه، وما يحسن معه نظمه، ولم يقل: اين من سعى ونجد، وزخرف وشيد، وبنى وعدد، ولو قال ذلك لكان كلاماً مفهوماً، ومن قائمه مستقيماً، وكان مع ذلك فاسد النظم، قبيح التأليف"⁴⁵، ووقف محمد العبد على كلام ابن وهب فقال: "لعل كلام ابن وهب في علاقة المشاكلة المعنوية ما يؤكد مقولة ليفاندوفسكي: أن الحبك شرط لغوي يسهم في فهم السبك فهما عميقاً، إذا كانت العلاقة بين (بنى) و(شيد) علاقة مشاكلة، فلا وجود لمثل هذه المشاكلة، إذا دخل في العبارة نفسها أحد هذين العنصرين مع آخر من عبارة أخرى، سوف يغيب السبك على معنى جودة التأليف، إذا غاب الارتباط الدلالي بين المعطوف والمعطوف عليه، والتميز في هذه الحالة لا يكون بين كلام مفهم وآخر غير مفهم، ولكنه سيكون بين كلام مفهم وآخر مفهم مسبوك محبوك"⁴⁶.

كذلك توقف النقاد القدماء عند الصور الشعرية التي لم تنتظم فيها المعاني، بما يحدث خللاً في الخطاب، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما لاحظته الأمدي على قول البحري:

هب الدار ردت رجع ما أنت قائله وأبدى الجواب الربع عما تسائله

فقال: "هذا بيت غير جيد، لأن عجز البيت مثل صدره، سواء في المعنى، وكأنه بنى الأمر على أن الدار غير الربع"⁴⁷. لقد جعل علماء لغة النص في الغرب للسبك والحبك أهمية بالغة، فكان الحبك عند "كلاوس برنكر" مفهوماً أساسياً في تعريف النص، كذلك رأى "هاينمان" أن وحدة النص لا تقاس بالظواهر السطحية، ولكن تقاس بالبحث عنها في البنية الدلالية المتمثلة بالحبك النصي، في حين يتحول السبك والحبك عند "ديوجراند ودرسلر" إلى معيارين نصيين⁴⁸، وهما من المعايير السبعة التي حددها للنصية، واللذان يختصان بصلب النص، أما "ليفاندوفسكي" فيحدد زوايا النظر إلى الحبك في علم اللغة النصي بالنقاط الآتية:

أ- الحبك هو الشرط اللغوي لفهم السبك بشكل عميق.

ب- يشكل الحبك خاصية تربط بين الأشياء والأوضاع، وبين مراجعها، وهو ما يسمى بالارتباط المرجعي أو الإرشادي.

ت- الحبك هو أحد خصائص الإطار الاتصالي الاجتماعي.

42 - عيار الشعر، ابن طباطبا، ص: 259.

43 - البرهان في وجوه البيان، ابن وهب: ص: 161.

44 - المصدر نفسه، ص: 162.

45 - حبك النص، محمد العبد، ص: 55.

46 - المرجع نفسه، ص: 56.

47 - الموازنة بين أبي تمام والبحري، الأمدي، ص: 381.

48 - ينظر: حبك النص، ص: 56.

مفهوم السبك عند القدماء والمحدثين من خلال لسانيات النص م.م دعاء عودة حريجة م.م عقيل عبد مسلم هاشم

ث- الحبك إجراء يمثل حصيلة التلقي الابتكاري البناء.1

المبحث الثاني

معايير الترابط النصي بين اللغويين القدامى وعلماء اللسانيات

تهدف المعايير النصية إلى تحقيق الاتساق في الكلام، والاتساق ترابط لفظي يظهر على المستوى السطحي للنص، ويُعنى بالطريقة التي يتم فيها ربط الأفكار في بنية النص الظاهرة، أو ما يعرف بالبنية السطحية، والذي تندرج تحته أدوات عديدة منها:

1- الإحالة:

هي الترابط اللفظي الذي يكون على المستوى السطحي للنص، ويهتم بالطريقة التي يتم من خلالها ربط الأفكار ببنية النص، ومن ثم تحقق تماسك النص وترابطه، بوصفها علاقة دلالية لا تخضع لقيود النحو، وأما قيود الإحالة فهي التطابق بين الخصائص الدلالية للعنصر المحيل مع العنصر المحال عليه⁴⁹، وقد عرف "دي بوجراند" الإحالة بقوله "هي العلاقة بين العبارة والأشياء والأحداث والمواقف في العالم الذي يدل عليه بالعبارات ذات الطابع البدائلي في نص ما، إذ تشير إلى شيء ينتمي على نفس عالم النص، أمكن أن يقال عن هذه العبارة إنها ذات إحالة مشتركة"⁵⁰، وهذا معناه أن الإحالة هي ألفاظ وعبارات ترد في متن النص، لا تفهم إلا من خلال علاقتها بكلمات أخرى داخل النص، أو بعلاقتها بالعالم الخارجي المحيط بالنص، ومهما كان اتجاه الإحالة سواء أكانت داخل النص أم خارجه، فهي بحاجة إلى سياق الموقف لفهم مرجعيتها⁵¹. وتنقسم الإحالة إلى مقامية، لأن اللغة تحيل إلى موجودات خارج النص، وإحالة نصية، وهي نوعان قبلية وبعديّة ترتبط بعناصر أخرى موجودة في النص، فالإحالة المقامية تسهم في خلق النص؛ لأنها تربط العناصر اللغوية بعناصر أخرى غير لغوية، تتعلق بسياق الموقف، لكنها لا تسهم في اتساق النص بصورة مباشرة، وهو لا يقلل من قيمتها؛ لأن الإحالة المقامية هي الأساس في علاقة النص بالخارج، أو الموقف بعناصره المختلفة، على اعتبار اللغة وسيلة للتعبير عن المواقف، ومع ذلك فيمكن عد النص كله إحالة إلى الخارج أو الموقف⁵².

وتعد الضمائر عناصر إحالية خارجية، وهي تتطلب مالكا ومملوكا⁵³، لاسيما ضمائر الملكية في اللغة الإنجليزية، إذ تخلو منها اللغة العربية على اعتبار هذه الضمائر متصلة بالمملوك، مثل: كتابي- بيتي- سيارتي، في حين يكون المملوك في الإنجليزية محذوفا، لذا تنوب الضمائر عن مملوكها وعن الأسماء والأفعال والعبيرات والجمل المتتالية، ولا

49 - ينظر: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد الخطابي، المركز الثقافي، ط2، الدار البيضاء، 2006، ص:31

50 - النص والخطاب والإجراء، دي بوجراند، ص:320.

51 - ينظر: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد الخطابي، ص:17.

52 - ينظر: إشكاليات النص، دراسة لسانية نصية، جمعان بن عبد الكريم، ص:560

53 - ينظر: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد الخطابي، ص:18

تقتصر أهميتها عند هذا الحد بل تتعداه لتكون وسائل ربط بين أجزاء النص شكلاً ودلالة، داخليا وخارجيا، وسابقا ولاحقا⁵⁴.

كما تعد أسماء الإشارة وسائل إحصائية، وكذلك المقارنة التي تكون وسيلة إحصائية، وتلعب في الوقت نفسه دوراً في تماسك النص واتساقه، لا سيما حين تكون المقارنة بين عناصر تنتمي إلى جمل مختلفة؛ لأن انتماء العنصرين إلى جملة واحدة يؤدي إلى تماسك الجملة، وليس إلى تماسك النص⁵⁵.

2- الحذف:

من عناصر التماسك النصي الحذف، إذ يتم حذف عنصر أو أكثر من النص لغرض الإيجاز، أو هروباً من التكرار، فهو من هذه الناحية يشبه الاستبدال، ويختلف عنه؛ لأن الاستبدال هو حذف عنصر أو أكثر من النص مع استبداله بعنصر آخر، له علاقة بالمستبدل منه، أما الحذف فهو إسقاط عنصر دون الحاجة إلى استبداله بآخر، ولكن المعنى يبقى قائماً مع وجود الحذف، وهذا يعني أن الحذف يمثل الفارق بين ما يقرره النظام اللغوي، إلا أن المتكلم أسقطه، وبين ما يقرره السياق، والحذف قد يكون أبلغ من الذكر، كما ذكر عبد القاهر الجرجاني في قوله: "باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بينا إذا لم تبين"⁵⁶. فالحذف هو فراغ في بنية النص، ولكنه لا يلغي المعنى ولا يحول دون الفهم؛ لأن في السياق ما يملأ الفراغ. وللحذف شروط منها: لا يجوز الحذف إلا إذا كان المذكور في الجملة يعني دلالة المحذوف، أو يكفي لأداء المعنى، والعنصر المحذوف له قرائن معنوية ومقامية تشير إليه، فيكون في حذفه معنى أبلغ من ذكره⁵⁷، والمتكلم لا يحذف عنصراً إلا إذا كان في الكلام ما يدل على المحذوف، والحذف في مثل هذه الحالة يرفع من قيمة النص ويضعف من بلاغته، فمن هذه الجهة يلعب الحذف دوراً في تماسك النص واتساقه، أو أنه على نحو ما يذكر الخطابي، يقوم بدور أساسي في سياق النص، وإن كان ذلك الدور أثراً عما يقوم به الاستبدال والإحالة.

إن الإطار النظري للحذف يدل على إسهامه في تماسك النص، بيد أن التطبيق حمل الباحثين للخروج إلى الاعتقاد بأنه عنصر مهم في اتساق النص وترابطه، لا سيما في النصوص الحوارية والمحادثات اليومية التلقائية، وهذا عائد إلى ما يستند إليه المحذوف، فقد يتعلق بالمفوض أو بالمقام.

3- التكرار:

يؤدي التكرار من منظور لسانيات النص، أثراً في الاتساق النصي، كما أنه عامل من عوامل الترابط المعجمي، فيتطلب إعادة عنصر معجمي أو ما يرادفه بشكل مطابق له⁵⁸، وهو بعد عنصر يحيل إلى متقدم، وهذا لا يعني أن العنصر الثاني المكرر قد يحيل إلى المعنى نفسه الذي يحيل إليه، فتكون في هذه علاقة إحصائية بين الأول والثاني

54 - ينظر: علم اللغة النصي بين النظري والتطبيقي، دراسة تطبيقية على السور المكية صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2000، ص: 137.

55 - ينظر: الاتساق والانسجام في القرآن الكريم، مفتاح بن عروسن ص: 223.

56 - دلالات الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة، ط2، بيروت، 1978، ص: 112.

57 - ينظر: الجملة العربي، محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، ط1، القاهرة، 1996، ص: 208.

58 - ينظر: لسانيات النص، محمد خطابي، ص: 24.

مفهوم السبك عند القدماء والمحدثين من خلال لسانيات النص م.م دعاء عودة حريجة م.م عقيل عبد مسلم هاشم

المكرر⁵⁹، فالتكرار يعد إحالة إذا ارتبط الثاني بالأول، وفي حال عدم مجيئه وفق هذه العلاقة، فإنه يظل عنصراً من عناصر الاتساق النصي. وللتكرار أنواع مثل تكرار اللفظ، وتكرار المعنى، فتكرار المعنى لا يستلزم تكرار اللفظ نفسه، وهناك نوع آخر وهو التكرار الإيقاعي الذي وجد في القصيدة العربية التقليدية، إذ تتكرر تفعيلات بعينها مرات عدة في القصيدة، كتفعيلات وزن البحر الكامل والرجز وغيرهما.

4- الانسجام:

الانسجام من ظواهر الاتساق في النصوص الأدبية، إذ اهتم علماء اللغة واللسانيات بالانسجام على اعتباره وسيلة من وسائل رصف الكلام، فقال سعد مصلوح في تعريفه: "هو الاستمرارية الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم"⁶⁰، ومن الواضح أن التعريف الذي جاء به مصلوح غامض، إذ الاستمرارية الدلالية التي يتكلم عليها خاصة بمنظومة المفاهيم، غير أن السياقات الكلامية لا تنطوي على المفاهيم فحسب، بل إن الدلالة تتشكل من خلال الاقتران والرصف والنظم، سواء أكانت صادرة عن مفاهيم أم مفردات، وفي هذه الحال فإن تحديد الانسجام بما يتصف باستمرارية الدلالة في المفاهيم، يطرح عن المفردات التي تنتظم بعلاقات المجاورة، صفة الانسجام، والحق أن جميع مفردات اللغة التي تندرج تحت إطار السياق، قابلة أن تكون منسجمة أو غير منسجمة. ويقدم الباحث بوقرة تعريفاً آخر للانسجام، فيرى أن الانسجام يتضمن حكماً عن طريق الحدث والبدئية، وعلى درجة من المزاجية حول الكيفية التي يشغل بها النص، فإذا حكم القارئ على نص ما بالانسجام، فإنه يقوم بتأويل يقترب مع نظره للعالم؛ لأن الانسجام غير موجود في النص فقط، ولكنه نتيجة التفاعل مع مستقبل محتمل⁶¹، وهذا منحى جمالي، أكثر منه ألسني، ذلك لأنه يتصل بدوق القارئ وحساسيته ومزاجه، في حين أن الانسجام من وجهة نظر لسانية متمكن في السياق، فهو وإن كان أعمق من الاتساق إلا أنه يتطلب من المتلقي جهداً لإدراكه، وهذا لا يعني أنه غير موجود في النص، ذلك لأن وجوده معنوي متحقق بين عنصرين، وبين عنصر متغير بتغير النص⁶². ويتعرض محمد عزام لمفهوم الانسجام فيعرفه بأنه الطريقة التي يتم ربط الأفكار داخل العلاقات الرابطة بينها، فالطريقة التي يشير إليها الباحث هنا تتعلق بالكتابة، إذ يجب على الكاتب اتباع طريقة محكمة في كتابة نصه؛ ليتمكن القارئ من تأويل النص، وعادة ما يستدل بالعلاقات الدلالية الراسخة في عمق النص، وهي تعبر عن ذاتها، فيجد القارئ في نفسه انسجاماً مع تلك العلاقات الدلالية. فالانسجام في الحقيقة هو حصيلة اعتبارات معرفية لدى القارئ⁶³، وعن طريق معارف القارئ يتم تفعيل النص، إذ: "الانسجام حصيلة اعتبارات معرفية بنائية عند المستمعين أو القراء، وهو تفعيل لأي نص يدل على ترابط معنوي بين التصورات والمعارف، من حيث هو مركب من المفاهيم، وما يبينه من علاقات على المعنى، إنَّها

59 - ينظر: إشكاليات النص، جمعان عبد الكريم، ص: 360.

60 - علم اللغة النصي، صبحي الفقي، مرجع سابق، ص: 94.

61 - ينظر: المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، نعمان بوقرة، دار الكتب العالمية، ط1، عمان، 2009، ص: 92.

62 - ينظر: حيك النص من منظورات التراث العربي، محمد العبد، مجلة فصول، العدد: 59، العام: 2002، ص: 59.

63 - ينظر: النص الغائب، محمد عزام، اتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق 2001، ص: 48.

دقيقة دلالية محتزنة لا يتناولها النص غالباً على مستوى التكفل⁶⁴، ويعرف الانسجام لدى الألسنيين الغربيين بأنه التحام عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهومي، وتشمل وسائل الالتحام عناصر منطقية كالسببية، والعموم والخصوص التي تفضي إلى معلومات تخبر عن تنظيم الأحداث والموضوعات والمواقف المتناسكة، والدالة على التجربة الإنسانية، فالانسجام هو الذي بموجبه تتفاعل المعلومات مع المعارف السابقة للخصوص⁶⁵. ويشير كل من جون وميتشل آدم، أن الانسجام النصي من الناحية اللسانية نتاج متسق مترابط، وليس تتابعا عشوائياً لألفاظ وجمل وأفعال كلامية يتشكل منها النص، تحده مجموعة من الحدود تسمح لنا أن ندركه بوصفه كلاً مترابطاً بفعل العلاقات النحوية التركيبية القائمة على الإحالات والعوائد المختلفة، والروابط العديدة⁶⁶.

ويستفاد من هذا الكلام أن عمل الانسجام شبيه بعمل الاتساق، إذ هما يقويان مبدأ الرصف، عن طريق ترابط الجمل داخل النص، مما يزيد من قوة المعنى ووضوحه، ويجعل من النص وحدة متماسكة الأجزاء.

فالنص ليس متوالية لسانية، أو مجموعة من الكلمات غير المترابطة، بل هو بناء لساني محكم، وهو من ثم تتابع متماسك مؤلف من علاقات لغوية مترابطة⁶⁷، ويتطلب مجموعة من الشروط أو الخصائص ليصبح نصاً، ومن هذه الشروط ما ذكره (بوجراند، و"دريسلر" كالاتساق والتماسك، والانسجام والقصدية، والمقبولية والإخبارية، والموقفية والتناص⁶⁸، فالانسجام هو أحد معايير أو شروط النص، فعن طريقه مقترنا بالشروط الأخرى تتحقق نصية النص، والنصية هي مجموعة من الشروط التي تجعل من المتواليات اللغوية نصاً، وهنا يتحد الاتساق مع الانسجام على اعتبارها مجالاً للإعلامية والتقبلية، كما يتعلقان بالمؤلف من جهة المقصدية، وكذلك يندجان بالسياق من جهة الموقفية والتناص.

لقد شاع لفظ الانسجام في الدراسات اللسانية العربية الحديثة، بوصفه مصطلحاً مترجماً عن اللغات الغربية، يعني الحبك والتماسك والتنسيق، إذ قام محمد خطابي بتطبيق المصطلح على الشعر العربي الحديث، فحلل بموجبه قصيدة أدونيس (فارس الكلمات الغربية)⁶⁹، وهو بذلك يفتزع طريقاً جديداً للدراسات الألسنية العربية، بصورة لم توجد عند الغربيين الذين طبقوا مصطلح الانسجام على عمليتي التخاطب والسرد، بوصف الشعر يمثل خصوصية، إذ يتخطى الكثير من المعايير⁷⁰.

ويعتمد الانسجام على عمليات ضمنية غير ظاهرة، يستنتجها المتلقي من النص، مستعينا بمبدأ التأويل المحلي، ومبدأ التشابه وغير ذلك، كما يعني الانسجام الترابط الفكري أو المفهومي، أي ربط معاني الأقوال في الخطاب، أو معاني الجمل في النص⁷¹. ومعلوم أن النص القائم على الانسجام هو نص مستمر في دلالاته، وهو ما يحقق نصية النص، فلا ينفصل الانسجام عن السبك، فالسبك لا يكفي لإكساب القدرة على فهم النص، وذلك من السهولة

64 - حيك النص من منظورات التراث العربي، محمد العبد، مجلة فصول، العدد: 59، العام: 2002، ص: 59.

65 - ينظر: الاتساق والانسجام النصي، الآليات والروابط، ابن الدين بخولة، مرجع سابق، ص: 29.

66 - ينظر: مدخل إلى علم النص، محمد الأخضر الأصبحي، مرجع سابق، ص: 87.

67 - ينظر: علم لغة النص، سعيد البحري، مكتبة لبنان- ناشرون- لونغمان، ط1، بيروت 1877، ص: 108.

68 - ينظر المرجع نفسه، ص: 146.

69 - ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، مرجع سابق، ص: 209.

70 - ينظر المرجع نفسه، ص: 6.

71 - ينظر: علم اللغة النصي، صبحي إبراهيم الفقي، 94/1.

مفهوم السبك عند القدماء والمحدثين من خلال لسانيات النص م.م دعاء عودة حريجة م.م عقيل عبد مسلم هاشم

إنشاء نص محكم ترتبط به الجملة، ولكن إن لم يكن قائماً على الانسجام فلا سبيل لإدراك معناه،⁷² فافتقار النص إلى الانسجام، يجعل السبك ظاهرة شكلية عاجزة عن أداء وظيفتها الإفهامية، لذا احتاج السبك إلى الانسجام؛ لتكتمل البنية الدلالية فيه، ومن ثم تنظيم المعلومات ومعرفة أحداث النص، وفهم الرسالة التي ينطوي عليها، فالتوازي بين السبك والانسجام هو ما يتمم البناء الشكلي للنص، فلا يتحقق الانسجام إلا بترايط الجملة، ليقوم بدوره بربط معاني تلك الجملة.⁷³ والترايط بين السبك والانسجام حظي باهتمام عبد القاهر الجرجاني، وقد أطلق عليه تسمية **"نظير النسيج والتأليف والصياغة"** وقد قصد بذلك التحام السبك بالانسجام، معبراً عن تكامل البنية التركيبية مع البنية الدلالية، إذ يتحقق من خلال ذلك تحقيق التماسك والتناسق النصي، وهو ما يسمى لدى علماء اللغة بالحبك والسبك، اللذين يراعيان نظم الكلام بطريق توالي الألفاظ مع تناسق دلالتها، والتقاء معانيها على الوجه المعقول⁷⁴، وذلك بترتيب الألفاظ والتراكيب وفق ترتيب معانيها التي تصاغ كنسيج لغوي محكم، انطلاقاً من الجملة ووصولاً إلى نظم البنى الصوتية والنحوية والدلالية، أي تأليف الحروف والكلمات والجملة بشكل يسمح للمتلقي أن يفهم المقاصد،⁷⁵ مما يعني اهتمام عبد القاهر إلى أهمية الانسجام بين البنية الشكلية والدلالية في اتساق النص، وهو الذي عبر النص نسيجاً لغوياً محكماً، مؤلفاً من المعاني النفسية والتراكيب اللغوية المتغيرة بتغير السياق، وهذا الأمر مماثل لما جاء به العالم اللغوي الهولندي "فان ديك" في نظريته التي سماها "النسيج المتشابك للنص"، ومعناه تحليل النصوص وفقاً لآليات الإضافة والحذف والاستبدال، ليخرج من حيز دراسة الجملة إلى حيز دراسة النص،⁷⁶ وهنا يظهر أثر الانسجام، إذ عني بالترايط المعنوي بين تلك الظواهر، فيعمل على تقوية البنية الدلالية، كما يرتبط بالمتلقي، باعتباره يبحث في الكيفية التي تمكن المتلقي من فهم المعنى من خلال العناصر المكونة للنص، والنظام العام الذي يمضي وفقه، مما يجعل النص مصطبغاً بصبغة كلية متكاملة، بعيداً عن التناقض، والانتقال غير المسوغ من موضوع لآخر، وقد تقاسم اللغويون العرب القدماء مع اللغويين الغربيين، الحديث عن أثر الانسجام في تماسك بنية النص، وتحسين رصفه وحبكه، وقد يتحقق الانسجام ليقوم بهذه الوظيفة عن طريق المشاكلة والتلاؤم .

الخاتمة:

يتبين من هذه الدراسة أن علماء علم لغة النص، برهنوا على أهمية السبك والحبك، فتحول هذان المبدآن إلى معيارين من معايير النصية، لا بل تحولاً إلى معيارين للكلام الجيد كما ذكر قدامى العلماء العرب، الذين رأوا في المسبوك والحبوك ما يناظر المشاكلة في الكلام، والمشاكلة تفضي في آخر الأمر إلى التلاؤم والتناسب، والانسجام

⁷² - ينظر: لسانيات النص، محمد خطاي، ص: 15

⁷³ - ينظر: المرجع نفسه، ص: 16.

⁷⁴ - ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 102

⁷⁵ - ينظر: المدارس اللسانية في التراث العربي والدراسات الحديثة، محمد بناني، سلسلة بيت الحكمة، الجزائر، 2011، ص: 25.

⁷⁶ - ينظر: النص بنيانه ووظائفه، فان ديك، ص: 26.

والمؤاخاة، وهذه كلها تحولت إلى مصطلحات نصية في المباحث اللسانية الغربية في العصر الحديث. إن الحيك أداة لفهم السبك، وقد ورد ذلك في مؤلفات النقاد العرب، كابن قتيبة، الجاحظ، العسكري، وابن وهب، وابن طباطبا، وقد انطلقت تصوراتهم إلى المفاهيم النصية من المشاكلة على نحو خاص، والمشاكلة لا تبعد عن روابط السبك والحيك، إذ تم لعلماء لغة النص اعتمادها؛ بوصفها معايير نصية، ومثل هذه المعايير لم تغب عن أذهان اللغويين والبلاغيين العرب، الذين يرونها قد وجدت بشكل ظواهر في أغلب التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ولعل في التراث البديعي من الثراء والخصوبة ما يحفز الجادين من الباحثين إلى استنفاغ وسعهم في إعادة تشكيل هذا العلم من منظور نصي. إن مفهوم السبك والحيك، مع أنهما معروفان لدى اللغويين العرب القدماء، بغير التسميات التي جاء بها اللسانيون الغربيون، إلا أنهما اندرجا تحت إطار علم النص الحديث، وهو مصطلح تنازع اللسانيون أنفسهم في تعريفه. ففي اللغة الإنجليزية هو (texts grammer) وفي الفرنسية (de textg grammer)، وقد ترجم إلى العربية بتسميات مختلفة منها (نحو النص)، (علم النص)، (علم لغة النص)، (علم اللغة النصي)، (لسانيات النص)، (لغويات النص) وغيرها.

ولا شك أن هذا التعدد في ترجمة المصطلح يعود إلى عدم استقرار المصطلح في اللغة العربية، الذي عبّر عنه في اللغة الإنجليزية بتعبيرات كثيرة كـ (linguistics of text linguistics)، ثم استبدل بتسمية (grammare)، الذي صار أكثر استعمالاً لدى اللسانيين.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- الانساق والانسجام في التراث العربي، نعيمة سعدية، نشر جامعة خضير بسكرة، الجزائر، 2009.
- استراتيجية الانسجام في قراءة النص الأدبي، بشير إبيرير، نشر معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة الجزائر.
- البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ، تح: عبد الإله مهنا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1989.
- الترابط النصي في الخطاب السياسي، دراسة في المعاهدات البنيوية، سالم بن محمد المنظري.
- الجملة العربي، محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، ط1، القاهرة، 1996.
- حيك النص من منظورات التراث العربي، محمد العبد، مجلة فصول، العدد: 59، العام: 2002.
- الدرس النحوي في كتب الإعجاز القرآني، أشرف عبد البديع، القاهرة 2008.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة، ط2، بيروت، 1978.
- الصناعتين، العسكري، تح: محمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1952.
- علم اللغة النصي بين النظري والتطبيقي، دراسة تطبيقية على السور المكية صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2000.
- علم لغة النص، سعيد البحيري، مكتبة لبنان- ناشرون- لونغمان، ط1، بيروت 1977.
- علم المعاني، محمود نحلة، دار العلوم العربية، بيروت، 1990.
- العمدة لابن رشيق، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الحيل، ط5، بيروت 1981.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ط3، بيروت، 1997.

مفهوم السبك عند القدماء والمحدثين من خلال لسانيات النص م.م دعاء عودة حريجة م.م عقيل عبد مسلم هاشم

- لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، محمد الخطابي، المركز الثقافي، ط2، الدار البيضاء، 2006.
- اللسانيات وأسسها المعرفية، عبد السلام المسدي، الدار التونسية للنشر.
- لذة النص، رولان بارت، ترجمة محمد الرفراي ومحمد خير البقاعي، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد:10، السنة:1998.
- اللغة وفلسفة التواصل بين فينولوجية هوسيرل وتفكيكية دريدا مقارنة تحليلية وصفية جامعة، مصطفى معرف، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، 2004.
- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، تح: رفيق العجم، علي دحدوح، مكتبة لبنان، ط1، بيروت1996.
- المثل السائر، ابن الأثير، تح:محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعارف بمصر، 1939.
- مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقها، محمد الصبيحي، منشورات الاختلاف، ط1 ان الجزائر، 2008.
- مفاتيح العلوم، السكاكي، تح: نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.
- المدارس اللسانية في التراث العربي والدراسات الحديثة، محمد بناني، سلسلة بيت الحكمة، الجزائر، 2011.
- المدارس اللسانية في التراث العربي والدراسات الحديثة، محمد بناني، سلسلة بيت الحكمة، الجزائر، 2011.
- المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، نعمان بوقرة، دار الكتب العالمية، ط1، عمان، 2009.
- المصطلح اللساني وتعزيز المفهوم، خليفة الميساوي، دار الأمان في الرباط، 2013.
- المصطلح اللساني عند عبد الرحمن صالح، مجلة فصول، القاهرة، العدد:3، 2017.
- المصطلح الألسني العربي، أحمد مختار عمر، مجلة عالم الفكر، المجلد:20، العدد:3، الكويت1989.
- نحو أجرومية النص الشعري، سعد مصلوح، مجلة فصول، العدد:2، العام 1999.
- مناهج النقد الأدبي، صلاح فضل ، دار ميريت، ط1، القاهرة، 2002.
- مناهج النقد الأدبي الحديث، وليد قصاب، دار الفكر ، ط1، دمشق، 2007.
- مناهج النقد المعاصر، صلاح فضل، ميريت للنشر والمعلومات، ط1، القاهرة2002.
- النص الغائب، محمد عزام، اتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق 2001.
- نظام الارتباط والربط في الجملة العربية، مصطفى حميدة، الشركة المصرية العلمية للنشر، لونجمان، القاهرة 1979.
- نسيج النص، الأزهر الزناد، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، 2006.
- النظرية البنائية في النقد الأدبي، صلاح فضل، مكتبة النجلو مصرية ط2، القاهرة 1980.

- نظرية الأدب المعاصر، قراءة الشعر ديفيد بشبندر، ترجمة : عبد المقصود عبد الكريم الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1996.